سينما

«حراقة» مغاربة بكاميرا ألمانية

كل شيء يهون للأمّ

فيلم ألماني يعاين أحوال شبابٍ مغاربة يريدون الهجرة إلى أوروبا، ويعانون أهوالاً، وير تبطون بأهل، بتصويره مسارات أفرادٍ إلى مُشتهى

محمد بنعزيز

مهاجرون في ظروف مميتة، ينتظرون فرصة الإبحار تسلّلاً. يحكون قصصهم. يُفسّرون سبب مغامرتهم. هذا في «حراقة (Harraga)» للألماني بنجامن روست، الفائز بجائزة الإخراج في الدورة الـ15 (11 . 15 سبتمبر/أيلول 2024) لـ«مهرجان إسني ن ورغ الدولي للفيلم الأمازيغي» (أكادير المغربية). ترصد الكاميرا الواقع. تُسجّل ظواهره، وتربط بعضها بالبعض الآخر لتوليد المعنى. إنّه إخراج على حافّة الخطر. السلامة البدنية مُهدّدة. تتبّع روست أبطاله وقتاً طويلاً. الدليل: تغيّر أعمارهم. بُنِي المونتاج من عشرات ساعات تصوير، ما جعل الزمن يمرّ، ويظهر التحوّل في حياة الحراقة، في وثائقي/سيرة ذاتية. هذا عمل ذو نَفَسٍ طويل، عن مهاجر محتمل، يتربّص على بوابة أوروبا، منتظراً فرصة مؤاتية بعزيمة صلبة تتحدّى الزمن. هكذا يتحقق السويرتي (الحظ بالأمازيغية): سويرتي الوصول أو الموت. حراقة مغاربة يختبئون في شمال المغرب زمناً، ثم يصلون إلى شواطئ إسبانيا. يعيشون في براريك مرقّعة ويختفون، بانتظار التسلّل إلى دولة أوروبية شمالية. شبّانٌ يتواصلون مع أمهاتهم فقط. الأم هي الحافز. الرقم السرّي لهاتف الحراق: «ماما». علاقة المُراهق المغربي بأبيه متدهورة ومنقطعة. يردّد المراهق في وحدته: «امسحي دموعك يا أمي». وثائقي عن المهاجرين السرّيين المغاربة بكاميرا ألمانية. وثيقة صادقة تُخبر ما جرى، والشهود أحياء. وثيقة تستبق ما يجري الآن. الفنّ يمدّ العقل بشيءٍ من الحاضر الحارق. تفصل 14 كلم بين المغرب وإسبانيا. مسافة يقطعها المحظوظون، أصحاب محرّكات بقوة 100 حصان، في زورق يصعب ضبطه بالرادار ليلاً، في جوّ عاصف أو ممطر، بينما يغامر الفقراء الذين لا يملكون ما يدفعونه للوسطاء بالتسلّل أو السباحة، والموت.

يُقدِّم «حراقة» صورة عن الواقع، والتقاط الراهنيّة. الحراق، بطله، شخص يعيش حياة حقيقية، ويرفع شعاراً يكشف وضعه وأفقه وحوافزه: «خاطِرْ لتعيش» في ألمانيا، دولة الحق والقانون، حيث يحصل المواطن على احترام البوليس. في انتظار ذلك، تحمّل زمن الانتظار الطويل بتأمّل البحر، والغناء بكلمات تجسّد الحلم الموعود. تحمّل الزمن الميت والطقس المميت. يقصف النوارس بالحجر. يعيش نزاعات شراء الطعام. يتأمّل السياج الخطر. يغرق في الصمت، و يتأمّل السفن العابرة بشوق يشحذ عزيمة تحمل الزمن الميت. شوقٌ تُغذّيه فيديوهات تحكي تجارب السابقين.

دام التصوير سنوات. يجب أنْ يكون صبر المخرج أكبر من صبر الحراق، كي يلتقط الحقيقة البشرية. هذه رسالة للمخرجين الذين يصوّرون وثائقياً في 20 يوماً.

حالياً، يصوّر الحراقة أنفسهم من دون حاجة إلى مخرجين. انتشرت على مواقع التواصل، في سبتمبر/أيلول 2024، فيديوهات لشبان مغاربة يفرّون من البلد الحبيب في زوارق سريعة نحو أوروبا، وهم يردّدون شعارات الخلاص. بفضل تراكم الفيديوهات، حصل كلّ مهاجر محتمل على معرفة عميقة بتجارب الهجرة السرّية. كلّ ما يُصوَّر يصير علنياً. صارت الهجرة السرّية علنية مستمرة تُنقل بالمباشر بحكي آنيّ بالصُّور، بكاميرا قريبة من الوجوه. مع الصُّوَر، نبرةُ تحدٍّ ونصر. لذلك، يستعدّ الحالمون بالهجرة. يتدرّبون جسدياً على السباحة لوقت طويل، لتحمّل الماء البارد. يتجهّزون بما يساعدهم على التحمّل، كالحمص المبلّل، وبلاستيك حماية الهواتف من البلل.

> التقاط لحظة حسّاسة وتوثيق وضع بشري أهمّ من جمالية صورة

هاتفٌ للتواصل في المغرب، وآخر للتواصل عند الوصول لطمأنة الأم. يقول الحراق لأمّه: «كلّ شيء بخير»، ثم يعود إلى النزاع على الطعام. جرى التصوير في أماكن مُعتمة، تستحيل إضاءتها. جرى في ظروف صعبة، ونقص في التجهيزات. في الفيلم، التقاطُ اللحظة الحسّاسة، وتوثيق الوضع البشري أهمّ من جمالية الصورة. هذا فيلمٌ موجع، لا يرفع شعار «الفن للفن» الشكلانيّ المكتفي بذاته كالحلزون. حالياً، تغطّي الهجرة على الدخول المدرسي والسياسي، وعلى الإحصاء. تقول إحصاءات رسمية مغربية (مايو/أيار 2024) إنّ أكثر من أربعة ملايين شاب مغربي «لا يشتغلون، وليسوا بالمدرسة، ولا يتابعون أي تكوين». إنّهم ينتظرون في زاوية ما. بحسب إحصاء متفائل، «يحلم نصف شباب المغرب بالهجرة».

تعليقاً عليه، قال خالد العيوض (ناشط حقوقي في أكادير التي تشهد هجرة مرتفعة) إنّ الفيلم «نجح في جعلنا نلبس ثوب الحراقة، ونعيش حياتهم من دون مساحيق. لكنْ، رغم جمالية الإخراج وتفوّقه، يبقى الواقع أشدّ إيلاماً. لذلك، أخاف على وطني وعلى أبنائه. لذلك يجب أنْ نعيد النظر في أشكال تدبيرنا لهذا البيت المشترك». في انتظار ذلك التدبير، يُقدّم «حراقة» تصويراً حيّاً يوثّق جنون المغامرة نحو الفردوس الأوروبي. على الأرض، المغرب حارس بوابة أوروبا. في خطاب وسائل الإعلام: «المغرب لا يريد أنْ يكون دركيَّ أوروبا». لكنّ الوقائع تفرض نفسها. يتجاهل الخطاب الشعبوي السائد القانون الدولي، ويردّد أنّ الحكومة المغربية «مُخيّرة بين أنْ تجد شغلاً للشباب، أو أنْ تسمح لهم بالرحيل». للهجرة، مهما كان الثمن، معنى سياسي. إنّها رسالة إلى النخبة الحاكمة في المغرب. عملياً، تُنفّس الهجرة احتقان الشارع السياسي. الاجتماعي المغربي بشكل دوري. لهذا نتائج في إسبانيا. عام 2024، انتقلت الهجرة من المرتبة التاسعة إلى المرتبة الأولى في مسبّبات قلق الإسبان. نظراً إلى كثافة الهجرة، سيكون هناك لاعبون مغاربة كثيرون في البطولة الإسبانية. هذا يُحرّض اليمين المتطرّف في مدريد وبرلين.

بنجامن روست وعماد فايز في «مهرجان زوريخ السينمائي 2023» (فرْدا دِمير/Getty)

عن شارع في مدينةٍ لها ذاكرة وغياب

نديم جرجوره

إنّه يومٌ آخر من أيام القهر البيروتي، اللاحق على قهر فلسطيني ممتدّ في 76 عاماً. شارعٌ في مدينةٍ يكتظّ بأناس يريدون لحظة أمان، وبعمرانٍ غارق في ظلامٍ، وبسكّانٍ يتوهون بين واجبٍ أخلاقي وضيقٍ يزداد حدّة كلّ لحظة. شارعٌ له تاريخ، ومعه حكايات، وفيه عيشٌ. شارعٌ يحتفل بالحياة منذ خمسينيات القرن الـ20، على الأقلّ، والحرب الأهلية اللبنانية (1975 . 1990) تجهد في سلبه نبضه (وتنجح بذلك غالباً)، المتمثّل في اجتماع واقتصاد وثقافة وصحافة، ولـ«سهر الليالي» فيه أوسع مدى في تفاصيل حميمة لكثيرين وكثيرات.

الشارع هذا اسمه «الحمرا» (يُقال إنّ أصله ترابٌ أحمر زمن عربات الأحصنة، قبل تحوّله إلى معالمه المعروفة طويلاً)، ويكون واجهة وملاذاً ومتنفّساً لأكثر من جيل. شارعٌ يختصر زمناً، ويُقارع حروباً، وبعض تلك الحروب تفتك بوجوده، أو تحاول ذلك. شارعٌ يتفنّن بابتكار حياةٍ، لكنّ الحياة تغادره مراراً، وهذا بشعٌ ومُخيف.

إنّه يومٌ آخر من شقاءٍ لبناني، يُرافق شقاء فلسطينيين وفلسطينيات في مواجهة حرب إبادة إسرائيلية جديدة، لها (تلك الحرب) أفعالٌ سابقة في حروب ومجازر، في مدينةٍ يُقال دائماً إنّها حِصْنٌ لعرب يأتونها لخلاص، ولو مؤقّتاً، والآن يكونُ حضناً لأبناء البلد وبناته، ولو مؤقّتاً.

شارعٌ مفتوحٌ على أضواءٍ واحتفالات وعيش، وعلى شاشات كبيرة تصنع ذاكرةً وتكتب قصصاً وتعاين وقائع، وعند احتلالها تُتقن مقاومةً أصيلة تُرعب عدواً يريد عودةً لانتقام من هزيمةٍ له فيها.

شارعٌ يُفتَح لـ12 صالة سينمائية (على الأقلّ، وأزقّة متفرّعة منه تمتلك صالاتٍ عدّة أيضاً)، قبل أنْ يُغلقها مشروعٌ غير سليم كلّياً لإعادة إعمار بلدٍ مُفتّت ومنهار، وإعادة الإعمار كارثةٌ تُصيب مدينة وبلداً، وتُصيب ناس المدينة أساساً.

شارعٌ يأتيه نازحون ونازحات بعد إجبارهم على ترك منازل وقرى وأراضٍ ومدن لهم/لهنّ، لأنّ حرب إبادة وحرق وسلخ تشنّها إسرائيل في أحد أسوأ أساليبها جُرماً. يريدون مسكناً فيعثرون على شيءٍ منه. يتوزّعون على أرصفةٍ لتمضية وقتٍ، فلا عمل ولا حماية ولا أفق عودة قريبة، كتلك العودة الحاصلة في اليوم 34 لـ«حرب تموز» (2006). يريدون شيئاً من أمان، لكنّ «أم كامل» (طائرة MK الإسرائيلية)ً «تَـزِنّ» في سماء مُصادَرة، فالوحش الإسرائيلي يتحكّم فيها أيضاً، ويتحكّم فيهم/فيهنّ وفينا كلّ لحظة.

والشارع، إذْ يعاني انكساراً وخيباتٍ ووجعاً وانهياراً منذ سنين، يحاول احتضان مُصابين ومُصابات بألم الانسلاخ من منزل وقرية وأرضٍ ومدينة. صالات سينمائية مُغلقة منذ زمنٍ، واليوم تعجز عن استقبال نازح/نازحة، لشدّة تغييبها المزمن من سهر وفرح. صالات تصنع حياةً من عتمتها، فإذا بعتمة مدينة وبلدٍ يُغلقها، وحرب إبادة إسرائيلية جديدة تجعلها أكثر عتمةً من عتمةٍ مشتهاة سابقاً، فالعتمة السابقة مدخلٌ إلى عوالم وأسئلة ومعاينة ومعرفة، وهذا كلّه مندثرٌ، لأنّ الوحش الإسرائيلي متفلّتٌ من كلّ قيد ومُحاسَبة.

إنّها بيروت زمن حرب إبادة إسرائيلية جديدة (أنور عمرو/فرانس برس)

أقوالهم

«الجميلة من غزّة» ليولاند زوبرمان (WireImage) مثلٌ على تلاحم قميء بين النفاق الأبيض الفرنسي والدعاية الوردية الإسرائيلية، من عقر الاستيطان والاستعمار وراهنهما في فلسطين. مثلٌ في أشدّ أشكاله وقاحة على سياسة الغسيل الوردي، الذي تبثّه إسرائيل أنّى استطاعت، ووسيطها هنا السينما.

سليم البيك

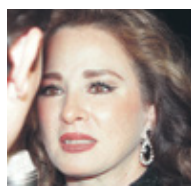

كان محمد أبو سيف، مخرج «بطل من الجنوب» (2001، تمثيل نجلاء فتحي/فرانس برس) معنياً بالربط بين كلّ ما يحدث في لبنان والأيدي الإسرائيلية التي حرّكت ذلك. قال لي إنّ خلاصَ لبنان مرهونٌ بمواجهة إسرائيل، وإخراجها من المشهد اللبناني.

أشرف غريب

تدرّبت على الغناء أكثر من سبعة أشهر، لأنّ العمل مع بابلو لارين (مخرج «ماريا» عن ماريا كالاس/Getty) يتطلّب جهداً واهتماماً بالتفاصيل، لتقديم أفضل ما لدينا. عندما غنّيت أوّل مرة، كنت متوتّرة للغاية. كنت أرتجف من الخوف. كنت مرعوبة من أنّي لن أرقى إلى مستواها، ولا أستطيع أنْ أغنّي أمام الناس. بابلو ساعدني على التغلّب على هذا كلّه.

انجلينا جولي

أفعالهم

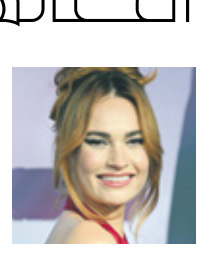

Greedy People لبوتسي بَنْسيرولي، تمثيل **ليلي جايمس** (WireImage): سكّان جزيرة صغيرة، يُفرض عليهم التعامل مع جريمة قتل، ومع عثورهم على مليون دولار أميركي، يجهلون مصدره. سلسلة قرارات سيئة تُتَّخذ بشكل متزايد، لكنّها تهزّ هذا المجتمع الصغير.

Lonely Planet لسوزانا غرانت، تمثيل **لورا ديرن** (Getty): تسافر روائية إلى المغرب للتغلّب على افتقارها إلى الإلهام، فتلتقي شاباً يرافق صديقته الكاتبة. يجد الشاب ملجأ في صداقته الناشئة معها. علاقة تؤدّي إلى قصة حبّ غير متوقّعة لكنّها مُدمّرة، تقلب حياتيهما رأساً على عقب.

The Killer لجون وو، تمثيل **ناتالي إيمانويل** (WireImage): زي قاتلة مُلقّبة بملكة الموت، تُنفّذ عقوداً مع فين، الإيرلندي العامل عند سيّد الجريمة جولز غوبر الذي يريد القضاء على منافسيه ليدير تجارة المخدرات المحلية وحده. أسلوب حياتها عنيف، لكنّ صداقتها مع تيسييه مختلفة تماماً. إنّه خيّاط عجوز تعتني الشابّة بسمكته الذهبية، وتستمتع معه بحلّ الكلمات المتقاطعة.

أخبار

◆ تُمنح الممثلة الأميركية، جاين فوندا، جائزة نقابة ممثلي الشاشة «عن مجمل إنجازاتها مدى الحياة»، التي ستتسلمها في فبراير/شباط 2025، كما ذكرت النقابة في بيان رسمي لها. وبحسب البيان نفسه، فإنّ فوندا (21 ديسمبر/كانون الأول 1937) أعربت عن «شعورها بالفخر والتواضع» إزاء هذا التكريم: «أعمل في هذا المجال طوال عمري تقريباً. ليس هناك تكريم كالتكريم الذي يمنحه لك أقرانك»، علماً أنّها عملت لستة عقود متتالية، نالت فيها جائزتي «أوسكار» أفضل ممثلة عن دوريها في Klute لآلن ج. باكولا (1971) وComing Home لهال آشبي (1978)، إضافة إلى جوائز عدّة، منها «غولدن غلوب» و«بافتا» و«إيمي» وغيرها.

◆ يُكرَّم الممثل والمنتج المصري محمود حميدة (7 ديسمبر/كانون الأول 1953) في الدورة السابعة (24 أكتوبر/تشرين الأول . 1 نوفمبر/تشرين الثاني 2024) لـ«مهرجان الجونة السينمائي»، بمنحه جائزة الإنجاز الإبداعي، لامتلاكه «مسيرة حافلة بالإنجازات»، كما قالت ماريان خوري، المديرة الفنية للمهرجان، التي أضافت أنّه «أثرى الفن المصري بتجارب فنية فريدة، وبأدوار مُعبّرة». وأشارت خوري إلى أنّ تكريمه هذا «احتفاءٌ بإبداعه المستمرّ في مجال السينما». يُذكر أنّ لحميدة تجربة مهمّة في مجال الصحافة السينمائية، بإصداره 48 عدداً من مجلة «الفن السابع»، في أربعة أعوام متتالية (1997 . 2001)، وكان محمود الكردوسي رئيس تحريرها.

◆ فاز الجزائري سمير الحكيم بجائزة أفضل ممثل، عن دوره في «أرض الانتقام» (2024) لأنيس جعاد (كتابة وإخراجاً)، في الدورة الـ12 (4 . 10 أكتوبر/تشرين الأول 2024) لـ«مهرجان وهران الدولي للفيلم العربي». يؤدّي الحكيم دور جمال، الخارج من السجن بعد ثلاثة أعوام أمضاها فيه بتهمة السرقة (لن يشي بالسارق الأصلي)، الذي يواجه تحدّيات جمّة تبدأ باختفاء زوجته وابنه، وبيع منزله، قبل انكشاف أسرار موغلة في القِدم، تنكشف عند ذهابه إلى بلدته الريفية، محاولاً بدء مرحلة جديدة من حياته فيها.